

حروف المعاني عند النحاة العرب، مقارنةً تداولية - كتاب حروف المعاني
للزجاجي أنموذجاً

*The Closed Class of Parts of Speech in Arabic Grammar, a pragmatic
approach - The Book of HOUROUF AL – MAANI by Al-Zajiji as a
model*

طالبة الدكتوراه / دبة خديجة
الأستاذ الدكتور : مسعود صحراوي

قسم اللغة والأدب العربي-جامعة عمار ثليجي-الأغواط(الجزائر)

مخبر التداولية وتحليل الخطاب، جامعة الأغواط.

khadidjahdebba@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2023/04/01 تاريخ القبول: 2024/05/05 تاريخ النشر: 2024/09/15

ملخص:

جاءت التداولية لتغطي النقائص التي اعترت اللسانيات البنوية، وانتقلت بالدرس اللغوي من حيز بنية اللغة الضيق إلى أفق الاستعمال. ولما كان النحو العربي منذ نشأته أوسع من مجرد قواعد معيارية تضبط اللغة، وأقرب إلى استعمال اللغة من حصرها في قوالب شكلية جامدة، فقد تقاطع في كثير من مفاهيمه مع ما أنتجته اللسانيات التداولية، على غرار قصد المتكلم وغرضه، وسياق الحال، وانطلاقاً بالأساس من ارتكازه على الوظيفة الأساسية للغة وهي الإعلام والتبليغ، وهو ما يلمسه المتأمل جلياً في مؤلفات كبار النحويين العرب على رأسهم سيبويه وابن جني والزجاجي وغيرهم...

ومن أكثر المباحث النحوية التي تتجلى فيها ملامح التداولية، حروف المعاني، لما فيها من ربط بين بنية هذه الحروف، واستعمالاتها وفق الأغراض ووظائفها في السياقات المختلفة، مثل قضايا: الحجاج والتأثير والتأثر والتفاعل بين أطراف الخطاب..

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الملامح التداولية في دراسة حروف المعاني عند واحدٍ من أشهر النحاة العرب عنايةً بها ألا وهو أبو القاسم الزجاجي (ت: 340 هـ) من خلال كتابه (كتاب حروف المعاني)، في محاولة للتقريب بين ما جاء بهذا الصدد وبين ما يشابهه من مفاهيم أنتجتها التداولية.

الكلمات المفتاحية: حروف المعاني، النحاة، العرب، تداولية، الزجاجي.

Abstract:

Pragmatics came to cover the shortcomings of structural linguistics, and moved the linguistic teaching from the narrow space of the language structure to the horizon of use since the establishment of Arabic grammar, it has been broader than mere normative rules that control the language and is closer to the use of language than limiting it to rigid formal templates, it intersects in many of its concepts with what has been produced by pragmatic linguistics, such as the speaker's intent and purpose, and the context of the situation, and based on its reliance on The main function of language is information and communication, which is clearly felt by who is deep into the writings of the great Arab grammarians, led by Sibawayh, Ibn Jinni, Al-Zajaji and others... The closed class of the parts of speech or horouf al-maani (letters of meanings) are among the most grammatical subjects in which the features of pragmatics are evident, because of the link between the structure of these parts, and their uses according to the purposes and functions in different contexts, such as the issues of: argumentation, the two-way influence, and interaction between the parties to the discourse.. This study aims to shed light on the pragmatic features in the study of the closed class of the parts of speech by one of the most famous Arab grammarians, namely Abu Al-Qasim Al-Zajaji (d.: 340 AH) through his book (Horouf al-Maani), in an attempt to approximate what was mentioned in this regard. And the similar concepts produced by pragmatics.

key words: Pragmatics, Arab grammarians, Closed class of the parts of speech, Horouf al-Maani, Abu Al-Qasim Al-Zajaji.

مقدمة:

لقد هيمنت البنيوية Structural Linguistics بمدارسها المختلفة على الدراسات اللسانية الحديثة منذ ظهورها وحتى إلى زمن ليس بالبعيد، انتقلت فيها من دراسة الكلمة والجملة إلى دراسة النص ولكنها بقيت ضيقة المجال، الذي اقتصر على مستوى التراكيب، والتعالق النحوي

والدلالي بين الوحدات اللغوية، فجاءت التداوليةPracmatics لتخرج بالدراسة اللغوية من هذا الحيز التركيبي الضيق إلى أفق الاستعمال، الذي يراعى فيه التفاعل بين الوقائع اللغوية والسياقات التواصلية المنتجة لها، وما يُحدثه هذا التفاعل من تغيير في الوقائع النفسية والاجتماعية. وفي ظل هذا التجاوز لم يعد الخطابُ عند أغلب الدارسين مجرد جملة من الوحدات التركيبية، ولا مجرد نصٍ تحدده معطياته اللسانية والنحوية، بل أصبح كياناً يُوجَّه فيه الكلام من متكلم معين مخصوص إلى مُتلقٍ معين لأداء غرضٍ تواصلٍ معين.

ولقد كان النحو العربي منذ نشأته أوسع من مجرد قواعد معيارية تضبط اللغة، وأقرب إلى استعمال اللغة من حجرها في قوالب شكلية جامدة، ولهذا فهو يتقاطع في كثير من مفاهيمه مع ما أنتجته اللسانيات التداولية، من مفاهيم ونظريات حديثة على غرار قصد المتكلم وغرضه، وسياق الحال، وانطلاقاً بالأساس من ارتكازه على الوظيفة الأساسية للغة وهي الإعلام والتبليغ.

ومن أكثر المباحث النحوية التي تتجلى فيها ملامح التداولية، حروف المعاني، لما فيها من ربط بين بنية هذه الحروف، واستعمالها وفق الأغراض ووظائفها في السياقات المختلفة، مثل قضايا: الحجاج، والتضمنين، والتأثير والتأثر والتفاعل بين أطراف الخطاب..

تهدفُ هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الأبعاد التداولية في دراسة حروف المعاني عند واحدٍ من أشهر النحاة العرب عنانيةً بها، ألا وهو أبو القاسم الزجاجي (ت: 340 هـ) من خلال كتابه (كتاب حروف المعاني)، في محاولة للتقريب بين ما جاء بهذا الصدد وبين ما يشابهه من مفاهيم أنتجتها التداولية.

فما هي الأبعاد التداولية التي قد نلمسها في كتاب حروف المعاني للزجاجي؟

وأيّن تتجلى تلك الأبعاد؟

1- التداولية والنحو العربي:

1-1- تعريف التداولية:

تُعرّف التداولية بأنها "إيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، وتصير "التداولية" من ثم، جديرة بأن تعرف بأنها "علم استعمال اللغة"، وقد يصح أن نقول في تعريفها: إنها نسقٌ معرفي استدلالي عام يعالج الملفوظات ضمن

سياقاتها التلفظية، أو الخطابات ضمن أحوالها التخاطبية "1. وقد حددتها أرمينكو بأنها جزءاً مندراسة علمياً عم: هي دراسة التعامل اللغويّ منحيّ يجزئ من التعامل الاجتماعي 2.

و"تتلخص مهام التداولية في:

- دراسة "استعمال اللغة" فهي لا تدرس "البنية اللغوية" ذاتها، ولكن تدرس اللغة من حيث استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة.
- شرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات.
- بيان أفضلية التواصل غير المباشر وغير الحرفي على التواصل الحرفي المباشر
- شرح أسباب فشل المعالجة اللسانية الصرف في معالجة الملفوظات"3.

2-1- علاقة التداولية بالنحو العربي:

جاء النحو باعتباره واصفاً للغة العربية في استعمالاتها المختلفة، فعلى الرغم من وجود شق معياريّ في النحو يهتم بالقوانين الضابطة للأشكال اللغوية على النحو الذي أنتجته العرب في كلامها، كما ذكره ابن جني في تعريفه لعلم النحو. فإن كلام العرب موجود بالأساس من قبل النحو، وعليه، فإننا سنهتم في النحو بالشق الذي يدرس الظروف والتصورات التي أنتجت فيها اللغة، والكيفيات التي تستعمل فيها، والأغراض الكامنة في كل عبارة أو جملة لغوية. وهنا يكون التقاء النحو بمبادئ التداولية القائمة على: التبليغ والإفادة والقصد والتأويل والإقناع. وغيرها. "وبذلك فإن تداولية النحو تكمن في الاستعمال العفوي للغة قبل التععيد، لأن التععيد جاء ضابطاً شكلياً لهذا الاستعمال اللغوي العفوي الفصيح"4.

إن مفهوم النحو الذي نريد مقارنته بالتداولية هو ذلك "المفهوم الذي استقر في أذهان أوائل النحاة وانطلاقاً منه بنوا صرحه وأرسوا أصوله، و هو أنه لا ينحصر في مجموعة من القواعد جاءت لتصحيح خطأ أو لحن ما، وإنما هو منظومة من الأفكار وبناء لتصورات حول طبيعة اللغة، وطبيعة وظائفها، وطبيعة هذا العلم، وطبيعة أهدافه، وطبيعة العلاقة بينه وبين منظومة العلوم في الواقع المعرفي العربي الإسلامي وهذا التصور هو الذي سائر المنتوج النحوي في كل مراحل. إنما المقصود بالمقارنة التداولية في تجديد مفهوم النحو هو تلك التصورات التي بنيت عليها اللغة كما استعملها العرب القدماء دون قاعدة، وذلك في جانبها الإخباري والتقريبي

والتبليغي، وكيفية انبناء الجمل في تقديمها وتأخيرها وحذفها بالنظر إلى البنيات الذهنية والعمليات العقلية التي تنتج المعنى بالتقرير والإخبار، والقصد والتأويل والفهم والإعلام.⁵

1- حروف المعاني والبعد التداولي:

اشتغل بمعاني الحروف عدد من النحاة، بطرق تكون أحياناً متباينة الاختصاصات متداخلة في وجهات النظر، سواء فيما يتعلق بحروف المعاني، أو حروف المباني، وكان اهتمامهم بذلك منذ المراحل المبكرة في الاستقراء النحوي، ثم توالت التأليف حسب الاختصاصات النحوية، واللغوية المعروفة، إضافة إلى اهتمام أهل التفسير والفقهاء، والأصول بها.⁶

"فكانت التصانيف في الحروف، ومعانها موزعة بين اهتمامات مختلفة طلباً للشاهد في تقرير معانها، وضبط دلالاتها المتبادرة. تلك الدلالات الطريفة التي أعيت النحاة، والفقهاء بتتبعها، وملاحقة آثارها بالاستدلال، ومثال ما ورد في ذلك، أن الفراء تعقب معاني (حتى) في كتابه (معاني القرآن)، إلى أن كتب فيها ست صفحات فروي أنه قال: "أموت وفي نفسي شيء من حتى كما أتعبت (الهزمة) أبا عمرو بن العلاء، وأتعبت تلميذه الخليل بن أحمد، ولذلك حينما ألف المعجم (العين) لم يبدأ بالهزمة لأنها لا استقرار لها، وإنما أتعبت بمعانها المتقلبة، ودورانها بين حروف المباني وحروف المعاني كل من تصدى لها. فاختار البدء ب(العين)، لأنها من أقصى الحروف مدخلا في جهاز النطق".⁷

"جعل أبو القاسم الزجاجي الحروف على ثلاثة أضرب، حروف المعجم التي هي أصل مدار الألسن عريبها وعجمها، وحروف الأسماء والأفعال، والتي هي أبعاضها نحو العين من جعفر، والضاد من ضرب، وما أشبه ذلك، ونحو النون من لن، واللام من لم وما أشبه ذلك، وحروف المعاني التي تجيء مع الأسماء والأفعال لمعان. فأما حروف المعجم فهي أصوات غير مؤلفة، ولا مقترنة ولا دلالة على معنى من معاني الأسماء والأفعال والحروف إلا أنها أصل تركيبها. وأما حروف أبعاض الكلم، فالبعض حد منسوب إلى ماهو أكثر منه، كما أن الكل منسوب إلى ماهو أصغر منه وأما حد حروف المعاني وهو الذي يلتمسه النحويون، فهو أن يقال: الحرف ما دل على معنى في غيره نحو: "من" و "إلى" و "تم" وشرحه أن "من" تدخل في الكلام للتبعيض فهي تدل على تبعيض غيرها لا على تبعيضها نفسها، وكذلك إذا كانت لابتداء الغاية كانت غاية غيرها وكذلك سائر وجوهها. وكذلك

"إلى" تدل على المنتهى، فهي تدل على منتهى غيرها لا على منتهى نفسها، وكذلك سائر حروف المعاني. فالحرف مشروط في إفادة معناه الذي وضع له انضمامه إلى غيره"⁸. وقد اهتم علماء اللغة بحروف المعاني خاصة، بحثاً في التركيب، فأبرزوا الجانب الدلالي للأدوات، والمعاني المختلفة للأداة الحرف التي تعثور التراكيب، كما اهتموا بها استقصاءً وحصراً، فأفردوا لها المصنفات، فنرى الأداة ومعانيها المختلفة المستنبطة من أساليب العرب وطرائقهم في كلامهم. ومن هذه المؤلفات في الحرف بشقيه: الحروف للخليل بن أحمد الفراهيدي، والحروف في اللغة لأبي عمرو الشيباني والحروف لابن السكيت، ومعاني الحروف للرماني، وحروف المعاني للزجاجي الذي كان من أوائل من طرقت باب التأليف في هذا الميدان، بكتابه "حروف المعاني" و"اللامات"⁹.

ولمعاني الحروف أيضاً ارتباطاً بالبعد الاستدلالي التداولي، الذي يقتضي تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها تبعاً للاستدلالات وطرق التأويل التي تقتضيها. كما أنها ترتبط بعلاقات دلالية معينة ومقيدة على مستوى المفهوم أو المنطوق أو الاقتضاء أو الإشارة أو العبارة، وغيرها من الدلالات الأصولية التي تبين عن نظرية صالحة لمقاربة أنواع الخطاب¹⁰.

وقد أولى علماء الأصول حروف المعاني عناية خاصة، فقد حددوا معانيها وحصلوا دلالاتها وصنفوها وفق استعمالاتها المختلفة التي يتحكم فيها السياق بشقيه المقالي والمقامي، وذلك لاهتمامهم بإدراك المقاصد والإحاطة بظروف إنتاج النص وأسباب نزوله..

2- تعريف بالزجاجي وكتابه "حروف المعاني":

أ- نبذة تعريفية بأبي القاسم الزجاجي:

هو أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزجاجي، ولقب «الزجاجي» نسبة إلى شيخه أبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، ملازمته إياه. ولد في الصيمرة، ولا تعرف سنة ولادته، ونشأ في نهاوند جنوبي همدان، ثم انتقل إلى بغداد، لينهل من حلقات العلم فيها، بعد أن أصبحت قبلة العلم ومقر العلماء، بعد أن خالفت البصرة والكوفة، واستقطبت العلماء من كل مكان. وهناك التقى شيخه أبا إسحاق الزجاج النحوي البصري، ولأزمه حتى نسب إليه، وقرأ على غيره من أشياخ عصره، بينهم بصريون وكوفيون.

وبعد انتهاء فترة التعلم والتلقي، رحل إلى حلب في شمالي سوريا، وأقام فيها مرة، ثم غادرها إلى دمشق، حيث أقام فيها يدرس في جامع بني أمية، يملئ على الطلاب، ويصنف الكتب.

"ومنها رحل إلى طبرية في شمالي فلسطين. وذكر أنه جاور في مكة مرة، وهناك صنف كتابه المشهور «الجمال في النحو». واختلف في سنة وفاته ومكانها، فقيل إنه مات في طبرية في شهر رجب سنة 339 هـ، وقيل في ذي الحجة من السنة نفسها. وقيل توفي في دمشق سنة 337 هـ، أو سنة 339 هـ. كما قيل إنه مات في شهر رمضان سنة 340 هـ"¹¹.

ب- كتاب حروف المعاني:

كتاب «حروف المعاني» أو «حروف المعاني والصفات». كما جاء في آخر المخطوطة. كتاب لطيف في حجمه، قيم في موضوعه ومضمونه، سباق في ميدانه، فلو استعرضنا أسماء الكتب المطبوعة أو المخطوطة التي انفردت في موضوع حروف المعاني والأدوات، لما وجدنا قبله كتاباً مستقلاً. صحيح أن بعض كتب النحويين واللغويين المتقدمة تناولت مثل هذه الموضوعات، لكن مصنفها لم يخصصوا لها كتباً خاصة مستقلة في ذلك بل جاء الكلام عنها متناثراً ضمن كتب جامعة. فنجد عناية بهذه الموضوعات في كتاب إمام النحويين سيبويه، إذ أفرد لها باباً خاصاً، وهو «باب عدة ما عليه الكلم»؛ إضافة إلى حديثه عن بعضها، من النواحي الصوتية والصيغية والتركيبية والدلالية في مواضع ولعل أبا القاسم الزجاجي. رحمه الله. أول من أفرد مصنفاً مستقلاً للأدوات وحروف المعاني، إحساساً منه بأهمية هذا الاتجاه، لتعميق البحث فيها، واستشعاراً بأهمية سهولة الرجوع إليها عند الحاجة بلا عناء. فسبق بذلك غيره في هذا المضمار، فخلف لنا هذا المصنف، ومصنفاً آخر هو كتاب اللامات، وهو كتاب خصصه مصنفه لبحث اللامات ومواقعها في كلام العرب وكتاب الله عز وجل، ومعانيها، وتصرفها، والاحتجاج لكل موقع من مواقعها، وما بيّن العلماء في بعضها من الخلاف.¹²

- مادة الكتاب:

يعبر اسم الكتاب عن مضمونه، فقد أسماه مصنفه «حروف المعاني»، وجاء في آخره: «تم كتاب حروف المعاني والصفات. وجاء في خطبة الكتاب: «قال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي- رحمة الله عليه -: أما بعد ..، فإنك سألتني أن أضع لك كتاباً أشرح لك فيه جميع معاني الحروف، وعلى كم وجه يتصرف الحرف منها، فأجبتك إليه، وأحسنتم عوناً عليه . . .». بين المصنف أنه وضع الكتاب استجابة لسؤال سائل طلب منه وضع كتاب يشرح فيه معاني الحروف،

فالتزم ذلك، ووضح المعاني التي يؤديها كل حرف على حدة، وعزز ذلك بالشواهد، ووضحه بالأمثلة. وقد أدرك المصنف أن معنى الكلمة يستفاد من التركيب والتضام، فلم يكتف بإيراد المعاني المعجمية، وهذا ما يؤيده علماء اللغة المحدثون، إذ يرون أن المعنى يستفاد من النظرة الأفقية في التركيب، من خلال النظر إليهما مع غيرها في السياق، وليس النظر إليهما في نفسها منفردة. يقول «أولمان»: «فالسباق وحده هو الذي يستطيع أن يبين لنا ما إذا كانت الكلمة (قريب) (مثلاً، تعني قرابة الرحم أو القرب في المسافة».¹³

لقد تبين للغويون العرب، ومنهم الزجاجي، أن المعاني والدلالات التي تؤديها الحروف إنما تخضع لسياق وأن معنى الكلمة يتحدد داخل سياق، ويختلف من سياق لآخر. وسار الزجاجي على هذا المنهج من أول كتابه حتى آخره. فهو لم يورد. كما نرى. المعاني المعجمية للحرف أو الأداة، لكنه كان يذكر شاهداً أو تركيباً، ثم يستخلص منه المعنى المراد، ليتبين القارئ المعنى الدقيق الذي تؤديه الكلمة داخل السياق.¹⁴

"وقد أشار المصنف إلى طريقته تلك في مقدمة الكتاب، حين قال: «وعلى كم وجه يتصرف الحرف منها»، فنراه يذكر استعمال الحرف المختلفة في تراكيب مختلفة، ثم يذكر دلالاته في كل تركيب. مثال ذلك قوله في «لولا»: «لها موضعان، فأحدهما يمتنع بها الشيء لوجود غيره، والآخر: تكون تحضيضاً...»¹⁵

"والكتاب مختصر مركز، حشد فيه مصنفه ما يربو على أربعين ومائة شاهد من آيات القرآن الكريم، وما يزيد على خمسة وسبعين شاهداً شعرياً، إضافة إلى عدد من الأقوال المأثورة عن العرب الفصحاء. كل هذه الشواهد اللغوية والمعاني والآراء أودعها في كتاب لم تتجاوز أوراقه اثنتي عشرة ورقة، إذ كان يورد الأداة وشواهدا. أحياناً. دون تعليق أو توضيح كلمة أو بضع كلمات في كثير من المواضع، يبدو ذلك بجلاء في الجزء الأخير من الكتاب. ولم يهمل الزجاجي نسبة كثير من شواهده الشعرية، وحرص على نسبة الآراء إلى أصحابها من العلماء، ونسب اللغات التي أوردها إلى أصحابها. فالكتاب - على هذه الاعتبارات - كتاب لغوي بالمعنى الشامل، إذ تناول جوانب صوتية، وتحدث عن بني بعض الكلمات وصيغها واشتقاقها، وعرض جوانب نحوية تركيبية، وكان يختم كلامه بذكر دلالة كل أداة في كل سياق أو تركيب، ويعزز هذه الدراسات بالشواهد والأمثلة"¹⁶..

3- تداولية حروف المعاني في كتاب الزجاجي:

"..فإنك سألتني أن أضع لك كتاباً أشرح لك فيه جميع معاني الحروف، وعلى كم وجه يتصرف الحرف منها، فأجبتك إليه، وأحسننت عوناً عليه"¹⁷ هكذا استهل الزجاجي تصنيفه "حروف المعاني" مُقراً بأنه لم يكتفِ بشرح تلك الحروف ومعانيها الدلالية الوضعية، بل تعدى ذلك إلى شرح الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها كل حرف منها، وفي ذلك إشارة تداولية لما في تلك الحروف من خروج عن المعاني الوضعية إلى معانٍ أخرى يوجد لها الاستعمال وتحدد سياقاته المختلفة.

يفتح الزجاجي حروف المعاني بالحرف "عند" إذ يقول فيه: "عند: أداة لحضور الشيء ودنوه، كقولك: كنت عند زيد، أي بحضرته، و«كان هذا عند انتصاف النهار»، فتحتمل الزمان والمكان"¹⁸. وهو هنا يورد معنيين لـ "عند" يحددهما "السياق"، فالأولى هي للدلالة على المكان، والثانية للدلالة على الزمان، والسياق أحد أهم المبادئ التي تقوم عليها التداولية كما هو معروف.

ومثل ذلك مع الحرف: ""

ويقول في "كل": "كل: عموم، وقيل لتوكيد المعنى، وقد يستغنى عنه، نحو قولك: مررت بالعشيرة كلهم، ولو لم تقل "كلهم" كنت مستغنيا"¹⁹، وهنا يتضح مبدأ تداولي آخر إلى جانب السياق، ألا وهو "القصديّة"، فهو حين يشير إلى القارئ بقوله "ولو لم تقل كلهم كنت مستغنيا"، أي أنت لم تقصد أن تؤكد مرورك بالعشيرة كلهم وإنما قصدت أن تُخبر بمرورك بها وحسب فلم تكن بحاجة إلى استعمال "كل" للتوكيد فاستغنيت عنها.

ويقول في "بعض اختصاص هل: تكون استفهاماً، كقولك: هل خرج زيدٌ. وتكون بمعنى قد، كقول الله تعالى: (هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهرِ)، قالوا معناه قد أتى. ويدخلها من معنى التقرير والتوبيخ ما يدخل الألف التي يستفهم بها، كقوله تعالى: «هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ»، وكقوله تعالى: (هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده)؛ فهذا استفهام فيه تقرير وتوبيخ. ويجعلونها أيضاً بمعنى «ما»، في قوله تعالى: «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة»، و«هل ينظرون إلا تأويله»، و«هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله»، و«هل على الرُّسُلِ إلا البلاغُ»؛ كل هذا بمعنى «ما»²⁰.

وهنا نجد "هل" تحتمل أكثر من معنى، الأول وهو المعنى الأساس الذي وُضعت له وهو الاستفهام، والثاني معنيّ أوجده استعمالها في سياق معين، وقد ظهر فيه مبدأ تداولي ثالث وهو "التضمين" -وهنا يمكننا طرح السؤال: هل "التضمين" مفهوم تداولي أم مفهوم نصي؟، ومن

المعلوم أنه في تراثنا يتراوح بين النحو والدلالة، أما في العلوم الحديثة فأمره مشكل بعض الشيء، فـ"هل" في الشاهد القرآني الأول تضمنت معنى حرف آخر وهو "قد" فهم من سياق التركيب الذي وردت فيه: هل أتى على الإنسان حين من الدهر أي قد أتى على الإنسان حين من الدهر، فالله عز وجل هنا لا يتساءل وإنما يُخبر عن الإنسان الذي هو آدم عليه السلام أول مخلوق على هذه الأرض، بأنه عند خلقه لم يكن شيئاً ذا قدر عند أهل السماء والأرض، بل لم يكن يُعرف له وجود إلا عند الله، فعرف به الملائكة وأمرهم بالسجود له فصار عندئذ مذكوراً.

وتحتمل "هل" معنى آخر أورده الزجاجي وهو التقرير والتوبيخ، كقوله تعالى (هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)، في خروج جلي من فعل الاستفهام المباشر إلى فعل آخر غير مباشر قوته التقرير والتوبيخ، فالله في الآية الكريمة لا يستفهم عمّن بإمكانه بدء الخلق وإعادته، حاشاه، وإنما توسّل بالاستفهام عن طريق أداته "هل" موبّخاً المشركين على شركهم، ومعجزاً إياهم بسؤالهم إتيان ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، مُقرّاً بذلك ضعفهم وعجزهم أمام قوته وقدرته.

ثم يذكر معنى آخر يتضمنه حرف "هل" ألا وهو معنى حرف "ما"، واستدلّ على ذلك بمجموعة من الشواهد القرآنية، ففي قوله تعالى: « فهل على الرسل إلا البلاغ » أي ليس للرسول من أمر الناس إذا كفروا شيء سوى التبليغ الذي أمرهم الله به، ويبقى حسابهم عند الله عز وجل، وهل "هنا" واضح أنها لم تكن للاستفهام وإنما نفى الله بها أي صلاحية للرسول على الناس ماعدا التبليغ. رادا بذلك على المشركين الذي اغتروا بأنفسهم وتحججوا في كفرهم بالقضاء والقدر قائلين: « .. لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ...» وفي هذا المعنى يتجلى مبدأ تداولي مهم ألا وهو "الحجاج" فالقوة الإنجازية للقول الذي ذكرت فيه "هل" من قبيل "ما" وليس من قبيل الاستفهام: « فهل على الرسل إلا البلاغ»، قوة حجاجية بامتياز، غابتها إبطال من الله عز وجل لحجة المشركين في تبرير كفرهم.. ويتجلى التضمين في موضع آخر حيث نجده في معاني الحرف "في" إذ يقول الزجاجي: "في: معناه الوعاء، الظرفية. وقد تأتي مكان "على" كقوله تعالى: (وَأَصْلِبْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ)، أي: على. وقال الشاعر:

هُمُ صَلَبُوا الْعَبْدِيَّ فِي جُدُعِ نَخْلَةٍ *** فَلَا عَطَسَتْ شَيْبَانُ إِلَّا بِأَجْدَعَا.²¹

فالحرف "في" يحتمل أن يتضمن معنى الحرف "على" وذلك بحسب السياق الذي يرد فيه، والقصد الذي يريد المتكلم.

ويقول في الحرف "أو: بمعنى التخيير، قوله تعالى: (فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ). وتكون بمعنى "بل": ((لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) ومنه: (إِلَّا كَلِمَاحِ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ). وتكون بمعنى الإبهام، كقوله تعالى: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ)، (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ)، (وَلَا تُطِغِ مِنْهُمْ أَيْمَانًا أَوْ كَفُورًا)²².

فـ "أو" هنا تحتل ثلاثة معانٍ، أولها التخيير وهو ما وُضعت في الأصل له، وثانها أن تتضمن معنى "بل": ((لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) فحوى القول: لبئسنا يوماً بل بعض يوم، والثالث أن تتضمن معنى الإبهام: (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ) يريد الله به إبهام العدد لحكمة هو يعلمها ولكنه ليس أنقص من ألف بل قد يزيد عليها.

ويقول في معنى الحرف "دون: تكون اسماً وظرفاً.

فأما كونها اسماً؛ فإذا أردت جهة الدناءة والضعفة، كقولك: إِنَّهُ لَدُونَ مِنَ الرِّجَالِ. قال الشاعر:

وَإِذَا مَا نَسَبْتَهَا لَمْ تَجِدْهَا *** فِي نِضَاءٍ مِنَ الْمَكَارِمِ دُونَ

وكونها ظرفاً كقولك: جَلَسْتُ دُونَكَ، فهي تقتضي التقصير عن الغاية، إمّا في المنزلة، أو في القرب والبعد²³.

نجد هنا الحرف "دون" يحتل نوعين ومعنيين فالأول اسمٌ، يتضمن معنى الدناءة والضعفة، والثاني ظرفٌ يتضمن معنى التقصير في المنزلة أو في المسافة. والمُرَجَّحُ هنا في المعنيين قصد المتكلم والسياق الذي يرد فيه الحرف، فحين يقول الزجاجي هنا: "فإذا أردت جهة الدناءة والضعفة، كقولك: إِنَّهُ لَدُونَ مِنَ الرِّجَالِ"، فهو إشارةً منه لقصد المتكلم وإرادته في الكلام.

ويقول الزجاجي في معنى الحرف "على: لها ثلاثة مواضع؛ تكون اسماً وفعالاً وحرفاً.

فالفعل: عَلَا فُلَانٌ يَا زَيْدَ.

والحرفُ قولكُ عَلَى زَيْدٍ مَالٌ.

والاسمُ قولكُ: جِئْتُ مِنْ عَلَيْهِ بِمَعْنَى "مِنْ فَوْقِهِ".

وتجئُ في مكانٍ "مِنْ"، قال تعالى: (إِذَا كُتِلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)، أي: من الناس.

وتقعُ بمعنى "عند" كقوله تعالى: (وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ)، أي عندي.

فالحرفُ "على" هنا يحتمل أكثر من معنى على حسب السياق الذي يردُّ فيه. فهو فعلٌ وحرفٌ واسمٌ، وقد يتضمنُ معنى "من" كقوله تعالى: (إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)، إذ لا يستقيم هنا معنى "على" الأصليُّ، فالأكتيالُ يكون من الناسِ ولا يكونُ عليهم. وقد يتضمنُ معنى "عند" نحو (ولهم عليّ ذنبٌ) على لسان سيدنا موسى، أي: لقوم فرعون عليّ دعوى ذنب أذنبت إليهم، وهو قتل نفسٍ منهم، ولهذا يكون استعمالُ الحرف "على" والمتضمن المعنى "عند" هنا أبلغ من استعمال "عند" وأقوى حجةً. وهكذا هي ألفاظُ القرآن لا توضعُ جزافاً.

يقول الزجاجي في معنى "كيف": لها ثلاثة مواضع؛ تقع بمنزلة كما، واستفهاماً عن حال. تقول: أعلمه كيف تشاء، كما تقول: أعلمه كما تشاء، وتقول في الاستفهام: كيف أبوك صانع؟ إذا سألته عن صنيعه؛ فإذا سألته عن نفسه، قلت: كيف زيد؟ فيقال: صالح؛ فهي تسأل بها عن حال الشيء وهيئته. وتقع «كيف» بمعنى التعجب، كقوله تعالى: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ)²⁴.

يجتمع في معاني "كيف" هنا ثلاثة مبادئ تداولية وهي التضمن، والقصد، والسياق.

فالتضمن في قولك "أعلمه كيف تشاء" أي كما تشاء.

والقصد في قولك كيف أبوك صانع؟ إذا كنت تقصدُ السؤال عن صنيع أبيه، وقولك كيف زيد؟ إذا قصدت سؤاله عن نفسه.

وتردُّ كيف بمعنى التعجب حسب السياق الذي يردُّ فيه اللفظ، كقوله تعالى: "كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم". ولهذا التعجب قوةٌ إنجازيةٌ حجاجيةٌ في مخاطبة الله للكفار الذي يجحدون بنعمه عليهم فيذكرونها: كيف تنكرون - أيها المشركون - وحدانية الله تعالى، وتجددون نعمه عليكم وأنتم تشهدون دلائل قدوته في أنفسكم؟ فهو الذي أوجدكم من العدم ونفخ فيكم الحياة، ثم يميتكم بعد حين، ثم يعيدكم أحياء يوم البعث ليحاسبكم ويجازيكم بقدر ما كنتم تعملون.

ولا يخلو تصنيف الزجاجي لحروف المعاني من "أفعال الكلام"، أحد أهم الأعمدة التي تقوم عليها التداولية، ونذكر على سبيل المثال:

- "أولى لك: تهديدٌ ووعيد، قال تعالى (أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى)." ²⁵ وهذا فعلٌ كلاميٌّ مباشر من الوعديات، قوته الإنجازية هي التهديد والوعيد، منه تعالى للكافر به المكذب المغرور، يهدده بالهلاك الذي استحقه فوليه.
- "لا: نفي للمستقبل والحال، وقبيحٌ دخولها على الماضي، لئلاً تُشبهَ الدعاء؛ ألا ترى أنك لو قلت: لا قام زيدٌ، جرت كأنك دعوت عليه.." ²⁶
- نجد هنا الحرف "لا" إذا دخل على الفعل الماضي كما هو في القول: (لا قام زيدٌ) يحتملُ فعلاً كلامياً غير مباشر، من السلوكيات "قوته الإنجازية الدعاء على المقصود بالكلام، محتواه القضوي: هلك زيدٌ.
- "نعم: للحمد والثناء المستحق الشائع في الجنس، كقولك: نعمَ الرجلُ زيدٌ، إنما هو مدحٌ له بالحمد المُستحق في جنس الرجال". ²⁷ وهذا فعلٌ كلاميٌّ مباشر من السلوكيات، قوته الإنجازية المدح والثناء.
- ونفسُ الشيء معي "بئس" غير أنها للذمِّ: "بئسَ: للذمِّ، ومجراها فيه مجرى "نعم" في الحمد" ²⁸.
- "صه: معناه أُسكَّت" و مَه: معناه أُكْفِف" ²⁹ وهما فعلان كلاميان مباشران من الأمرات.
- "حَمَل: معناه إيتِ وأسرع. قال ابن مسعود رضي الله عنه "إذا ذُكر الصالحون فحَمَل يَعْمُر"، أي أسرعوا في ذكره. "وحَيَّ على الصلاة، أي إيتوا إليها" ³⁰. فعلٌ كلاميٌّ مباشر من الأمرات، قوته الإنجازية الطلب والحث.
- "يا: حرفُ نداءٍ وتنبيه، وكذلك أيا وهيا وأي، هذه حروفُ نداء، وقد تجري الهمزة مجراها، كقولك أزيد، وأنت تريد: يا زيد" ³¹. فعلٌ كلاميٌّ مباشرٌ من الأمرات، قوته النداء والتنبيه.
- "ألفُ الاستفهام: تدخل في الكلام لمعان؛ تكون استفهاماً محضاً، كقولك: أزيد عندك أم عمرو؟ وتكون تقريراً وتوبيخاً؛. فالتقرير قولك: ألسْتُ كريماً؟ ألم أحسن إليك؟، كقوله تعالى: (ألم أعهد إليكم يا بني آدم «. قال جرير:
ألستم خير من ركب المطايا*** وأندى العالمين بطون راح
والتوبيخ؛ كقولك: ألم تذنب فأغفر لك؟ ألم تُسئ فأحسن إليك؟" ³².
- هنا تجتمع ثلاثة أفعال كلامية: أولها فعل مباشر من الأمرات قوته الاستفهام المحض: "أزيد عندك أم عمرو؟"، وثانيها فعلٌ كلامي غير مباشر من التقريرات: "ألسْتُ كريماً"، والثالثُ فعلٌ كلامي غير مباشر من الوعديات قوته التوبيخ: "ألم تُذنب فأغفرُ لك؟".

بهذا القدر نكون قد استعرضنا بعض المواضيع من تصنيف الزجاجي لحروف المعاني والتي تجلت فيها قيمٌ تداولية على غرار التضمين، والقصد، والسياق، والحجاج، وأفعال الكلام.

• خاتمة البحث ونتائجه:

في الأخير، كانت هذه محاولة لتسليط الضوء على الأبعاد التداولية الماثورة في كتاب حروف المعاني لأبي القاسم الزجاجي، وقد أفضت إلى النتائج الآتية:

- حروف المعاني من أكثر المباحث النحوية التي تتجلى فيها ملامح التداولية، لما فيها من ربط بين بنية هذه الحروف، واستعمالاتها وفق الأغراض ووظائفها في السياقات المختلفة، مثل قضايا: الحجاج والقصد والتضمين والتأثير والتأثر والتفاعل بين أطراف الخطاب..
- يحتمل أن يتضمن الحرف لأكثر من معنى، معناه الأصلي الذي وُضع له، ومعانٍ أخرى فرعية يوجد لها الاستعمال ويُحددها السياق.
- إن لحروف المعاني قوة حجاجية أصلية كامنة بصفة جوهرية في بنيتها وتتأكد وتبرز أكثر أثناء استعمالها في الخطاب، مما يعزز نظرية ديكرو القائلة بما عرف في التداولية بـ "الحجاج في اللغة" ويصدقها، وقد أشار بعض نحائنا القدامى إلى ذلك بلغة عصرهم...
- تُنجزُ بعض حروف المعاني أفعالاً كلامية مباشرة وغير مباشرة، طلبية وغير طلبية، حسب السياقات التي ترد فيها.
- ينبغي إعادة النظر في النحو الذي لا يقتصر فقط على التعقيد اللغوي، والوصف الشكلي للقوالب اللغوية، وينبغي إبراز الجوانب الاستعمالية والتخاطبية فيه والتي تجعله أكثر قرباً من الوقائع اللغوية، والأغراض التواصلية، وذلك عن طريق مقارنته بالتداولية ومفاهيمها.

- وعليه، نوصي بضرورة تسليط الضوء في البحوث التداولية الحديثة على الأبعاد التداولية المبتوتة في تراثنا اللغوي عامة، والنحوي على وجه الخصوص لما لمسناه من توفرٍ لاعتبارات تداولية عديدة في تصنيفات النحاة العرب على غرار الزجاجي في كتابه حروف المعاني.

1. مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار التنوير، الجزائر، 2020، ط2، ص 30.
2. يُنظر: يوسف نجعوم، البعد التداولي في بنية الخطاب الأدبي، مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي، العدد 2 جوان 2020، ص 749.
3. مسعود صحراوي، نفس المرجع السابق ص 40.
4. زهير بوخياري، ملامح التداولية في النحو العربي عند سيبويه وابن جني دراسة تحليلية في المفاهيم، مجلة علوم اللغة وأدائها، المجلد 12، العدد 2، التاريخ: 2020/09/14، ص 944.
5. يُنظر: نفس المرجع، ص 944.
6. ينظر: أحمد كروم، الاستدلال في معاني الحروف، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، المغرب، ط1، ص 30.
7. نفس المرجع السابق، ص 30.
8. حمداد بن عبد الله، حروف المعاني دراسة في التاريخ والمنهج، مجلة متون، جامعة سعيدة، الجزائر، المجلد 1، العدد 2، 2008، ص 148.
9. يُنظر: نفس المرجع السابق، ص 152.
10. يُنظر: أحمد كروم، الاستدلال في حروف المعاني، ص 183.
11. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، تج: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط2، 1986، ص 11-12.
12. يُنظر: أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 18-19.
13. يُنظر: أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 21.
14. يُنظر: أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 25.
15. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 25.
16. يُنظر: أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 25-26.
17. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 65.
18. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 65.
19. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 65.
20. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 66.
21. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 75.
22. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 76.

23. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 84.
24. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 96.
25. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 77.
26. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 72.
27. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 80.
28. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 80.
29. يُنظر: أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 80.
30. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 80.
31. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 80.
32. أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، ص 83.

● قائمة المراجع:

- أحمد كروم، الاستدلال في معاني الحروف، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، المغرب، ط1، 2000.
- حمداد بن عبد الله، حروف المعاني دراسة في التاريخ والمنهج، مجلة متون، جامعة سعيدة، الجزائر، المجلد 1، العدد 2، 2008.
- زهير بوخيار، ملامح التداولية في النحو العربي عند سيبويه وابن جني دراسة تحليلية في المفاهيم، مجلة علوم اللغة وأدائها، جامعة الوادي، الجزائر، المجلد 12، العدد 2، التاريخ: 2020/09/14.
- أبو القاسم الزجاجي، كتاب حروف المعاني، تج: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط2، 1986.
- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار التنوير، الجزائر، ط2، 2020.
- يوسف نجعوم، البعد التداولي في بنية الخطاب الأدبي، مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي، العدد 2 جوان 2020.